Hudson Institute

معهد هدسون

هكذا تنتهي حرب إيران

مايكل دوران

يحكم دونالد ترامب اليوم في خضم استقطاب حادّ: أعداء يتربّصون به ليرسموا فشله، وحلفاء يطالبونه بانتصارات لا تتحقق. ويواجه هذه المعادلة الشائكة وهو يُعلن أن اتفاقاً لإعادة فتح مضيق هرمز بات "في مراحله الأخيرة من التفاوض."

ويتلقّى ترامب الضربات من جانبين في آنٍ واحد. فمن حلفائه الجمهوريين، يُحذِّر السيناتور ليندسي غراهام من التراجع المهين، إذ كتب على منصة إكس: "إن أُبرم اتفاق لإنهاء الصراع الإيراني على خلفية الاعتقاد بأن مضيق هرمز لا يمكن حمايته من الإرهاب الإيراني، فسيُنظر إلى إيران باعتبارها القوة المهيمنة التي تستوجب حلاً دبلوماسياً"، مضيفاً أن مثل هذه النتيجة "ستكون كارثةً على إسرائيل". وفي المقابل، يصوّر الديمقراطيون المعارضون للحرب منذ بدايتها التوجهَ نحو الدبلوماسية باعتباره اعترافاً بالعجز؛ ولم يُخفِ السيناتور كريس فان هولن شماتته، معتبراً الإطار الناشئ "عودةً إلى ما كان قائماً قبل الحرب".

يدّعي الخصوم أن دبلوماسية ترامب تصبّ في صالح روايتهم التي وصفت الحرب بأنها عبثية ومتهوّرة، فيما يطالبه المؤيدون بانتصار مطلق لا يبدو في متناول اليد. وكلا الفريقين يُحرِّف منطق المرحلة الاستراتيجية.

فالمنتقدون الديمقراطيون يأبون الاعتراف بما حقّقته الحرب من مكاسب جوهرية، وفي مقدّمتها الضربة الموجعة التي تلقّاها البرنامج النووي الإيراني. يقدّر ديفيد ألبرايت، رئيس معهد العلوم والأمن الدولي وأحد أبرز الخبراء المستقلين في ملف الانتشار النووي، أن طهران انتقلت من حالة تكاد تكون موثوقة من حيث قدرتها على صنع سلاح نووي في غضون أشهر، إلى مواجهة جداول زمنية أطول بكثير وفرص نجاح أدنى بشكل ملحوظ.

فضلاً عن ذلك، يرزح الاقتصاد الإيراني تحت وطأة العقوبات وعائدات النفط المتقلّصة والأضرار التي لحقت بالبنية التحتية. وباتت ميليشيات الوكالة التي تشكّل "محور المقاومة" عاجزةً عن أي تنسيق فاعل. يختبئ المرشد الأعلى الجديد، الذي حصل على منصبه بالوراثة، في مخابئ تحت الأرض، ويترأس قيادةً متشرذمة. ويقبع جزء كبير من منظومة الصواريخ الباليستية التابعة للحرس الثوري الإيراني تحت الأنقاض. وتضافرت هذه المعطيات لتُخرج الولايات المتحدة من هذه الحرب في موقع استراتيجي أمتن مما كانت عليه قبل اندلاعها.

أما المنتقدون الجمهوريون، فيُقرّون بهذه المكاسب، لكنهم يرون أن دبلوماسية ترامب تُبدّدها. ويخشون أن تؤدي التنازلات الدبلوماسية لطهران إلى تبديد الضغط الذي أُنجز بشق الأنفس. ولا شك أن بعض المخاوف التي يثيرها الجمهوريون المنتقدون لها ما يسوّغها؛ إذ إن التوجّه نحو الدبلوماسية يعكس إقراراً ضمنياً بالقدرة الإكراهية الإيرانية. فقد أثبتت إيران أنها حتى في حالة الوهن قادرة على التهديد بالتصعيد عبر استهداف البنى التحتية الخليجية وتهديد حركة الملاحة التجارية في مضيق هرمز. وقد رأى ترامب على ما يبدو أن مجاراة طهران خطوةً بخطوة على سلّم التصعيد ينطوي على مخاطر باهظة بالنسبة لأسواق الطاقة العالمية والاستقرار الإقليمي.

بيد أن المنتقدين يُضخّمون حجم الرافعة التفاوضية التي يُخسرها هذا التحوّل الدبلوماسي. فالإقرار بالحدود الاستراتيجية والتراجع عن المواجهة ليسا مرادفَين للهزيمة. ليس السؤال ما إذا كانت إيران قد احتفظت بقدرة على فرض بعض التكاليف، فهي قادرة على ذلك بالتأكيد. السؤال هو ما إذا كانت طهران ستخرج من الحرب أقوى استراتيجياً مما كانت عليه قبلها. والجواب: لا.

لطالما أكّد دونالد ترامب أن غايته الاستراتيجية الكبرى هي هدف واحد: القضاء على برنامج إيران للأسلحة النووية. وتسعى الإدارة إلى بلوغ هذه الغاية من خلال مقاربة منضبطة قائمة على الأداء والنتائج، لا على نمط عهد أوباما الذي اقتصر على صفقة نووية ضيّقة مقابل تخفيف شامل للعقوبات. فبدلاً من رفع كامل العقوبات في مقابل تنازلات نووية هزيلة تتيح لإيران إعادة بناء ترسانتها الصاروخية وشبكة وكلائها، يربط الإطار الناشئ أي تخفيف للعقوبات بإجراءات إيرانية قابلة للتحقق.

وحتى مع المضيّ في المسار الدبلوماسي، تواصل الإدارة الردّ على الاستفزازات. ففي الاثنين، نفّذت القوات الأمريكية ضربات دفاعاً عن النفس في جنوب إيران استهدفت مواقع إطلاق الصواريخ والزوارق الإيرانية التي حاولت زرع الألغام، وفق ما أعلنه المركز الأمريكي. وقال متحدثه: "يواصل المركز الدفاع عن قواتنا مع ضبط النفس في إطار وقف إطلاق النار القائم".

وفي حديث مع مسؤول رفيع في الإدارة خلال عطلة نهاية الأسبوع، اتضحت ملامح تفكير الرئيس في الإطار الناشئ. فترامب يتصوّر مساراً من مرحلتين: في الأولى، يوقّع الطرفان مذكرة تفاهم تتمحور حول إعادة فتح مضيق هرمز تحت رقابة دولية، بهدف استقرار أسواق الطاقة وتخفيف التوترات العسكرية والحفاظ على وقف إطلاق النار. وفي المقابل، تنال إيران تخفيفاً اقتصادياً محدوداً وقابلاً للعكس في صورة صادرات نفطية.

ثم تنتقل المرحلة الثانية إلى الملف الاستراتيجي الجوهري: البرنامج النووي. وقد كشف المسؤول لي أن "ما نسعى إليه هو التزام بشأن المخزون المخصَّب" منذ المذكرة الأولى. وستضغط الإدارة على إيران للتخلص مما بات ترامب يسمّيه "الغبار النووي"، أي مخلّفات البنية التحتية النووية الإيرانية ومخزوناتها من اليورانيوم المخصَّب. والمبدأ الحاكم للمرحلة، كما صاغه المسؤول: "لا غبار، لا دولارات... لن نتنازل عن شيء حتى يقدّموا لنا شيئاً".

ويرجّح أن يتبلور هذا المسار في أحد سيناريوين اثنين، نسمّيهما التفاؤلي والتشاؤمي.

في السيناريو التفاؤلي، تتحقق مرحلتا الخطة كلتاهما. تُوقَّع مذكرة تفاهم قابلة للتمديد في الأيام المقبلة، تُعيد فتح مضيق هرمز تحت رقابة دولية وتُخفّف التوترات العسكرية الآنية وتُتيح تدفّق النفط عبر الخليج بصورة طبيعية. وتنال إيران تخفيفاً اقتصادياً محدوداً وقابلاً للعكس. ويثبت اليأس الاقتصادي أنه العامل الحاسم؛

فيخلص الحرس الثوري إلى أن قدراً من التكيّف أجدى من الانعزال المطوّل وخطر استئناف الضربات الأمريكية. تتلو ذلك مفاوضات جدية حول الملف النووي، وتُقدّم إيران تنازلات ذات مغزى في مسألة إزالة "الغبار النووي".

غير أن احتمال تحقّق هذا السيناريو ضئيل. فكل المعطيات المتاحة تشير إلى أن الرجال الذين يقودون إيران اليوم أقل مرونةً حتى من المرشد الأعلى علي خامنئي. لكن الاحتمال ليس معدوماً. وقد أخبرني المسؤول الرفيع أن النظام الإيراني "متشقّق ومنهك." وتتيح حالة الطوارئ الراهنة للحرس الثوري التملّص من المسؤولية عن الفوضى التي أوقعها في البلاد. ويأمل بعض المسؤولين في الإدارة أن تُفضي مذكرة التفاهم إلى دفع النظام إلى "النقطة التي يضطر فيها إلى حكم هذا البلد المنهار" مما يُعمّق الضغط الداخلي في وجه التضخم والفساد والجمود.

في الوقت ذاته، يظل المسؤولون يقظين تمام اليقظة أمام احتمال أن يواصل الحرس الثوري تسلّطه على الشعب الإيراني ورفضه أي تراجع على الملف النووي. وتحت هذه الشروط، سيتعمّق الاصطفاف الإقليمي في مواجهة طهران.

في السيناريو التشاؤمي، تمضي المرحلة الأولى لمذكرة التفاهم ويُعاد فتح مضيق هرمز، لكن مفاوضات المرحلة الثانية حول المخلّفات النووية تتعثّر سريعاً. ويوقع التسويف وانعدام الثقة والمناورات التكتيكية المحادثاتِ في مسار لا يُفضي إلى شيء، وهو نمط مألوف في كل جولات المفاوضات الأمريكية–الإيرانية السابقة.

حتى في هذه النتيجة، ستظفر الولايات المتحدة بمكسب استراتيجي ذي وزن. والمقارنة التاريخية الأصح هنا هي سياسة احتواء صدام حسين بعد عام 1991؛ إذ ظل النظام المنهَك المفروضة عليه العقوبات في صراع مديد مع تحالف تقوده الولايات المتحدة محتفظاً بالتفوّق في التصعيد وبتفوّق عسكري ساحق. وعليه، ستفسح الحملة العسكرية المجال لمنافسة مطوّلة من الضغط والردع والاستنزاف. لكن إيران اليوم أفقر وأكثر عزلةً وأبعد عن الاختراق النووي مما كانت عليه قبيل الحرب. وستُبقي الولايات المتحدة وإسرائيل على رصد مكثّف لأي نشاط نووي متبقٍّ وأي إنتاج للصواريخ الباليستية، مستعدّتَين للتحرك حيال أي مستجدات مثيرة للقلق.

السيناريو التشاؤمي ليس هدف الإدارة، لكنه في تقديري الاحتمال الأرجح. وسيكون لصقور الجمهوريين تأثير أوسع بكثير في هذا المسار إذا آثروا العمل في إطار رؤية الرئيس بدلاً من معارضتها على عواهنها.

وقد أثبت ترامب بالفعل، بالأفعال لا بالكلام، أنه ليس باراك أوباما، إذ أدخل في هذه المفاوضات العنصر الأشدّ غياباً في سنوات أوباما: استعداداً صادقاً وموثوقاً لاستخدام القوة العسكرية الساحقة ضد النظام الإيراني.

لذا، سيكون في مصلحة حلفاء ترامب تعزيز موقفهم بمطالبة الإدارة بالتمسّك بمعيارها المدروس: "لا غبار، لا دولارات". ومن هنا تبرز ثلاثة مطالب على الفور.

أوّلاً :يجب أن لا يأتي أي تخفيف جوهري للعقوبات أو أي منافع اقتصادية مباشرة لطهران إلا في مقابل تنازلات ملموسة وقابلة للتحقق، لا مجرد المشاركة في العملية الدبلوماسية. فنفوذ الإدارة مستمَدّ من الضغط الاقتصادي المحمول على ظهر التفوّق العسكري. والإسراع في التفريط في هذا النفوذ سيُكرّر خطأً محورياً ارتكبه المقاربة الأوبامية.

ثانياً :يجب أن تنفصل إدارة الإدارة الأمريكية بين مسألة حزب الله ولبنان ومسار المفاوضات النووية. ستسعى طهران إلى تحويل كل ملف إقليمي إلى ورقة مساومة لحماية شبكة وكلائها وإضفاء الشرعية عليها. وليس في مصلحة واشنطن أن تُعزّز الربط بين الملف النووي الإيراني ووضع حزب الله داخل لبنان.

ثالثاً :يجب أن يبقى التهديد العسكري ماثلاً وذا مصداقية طوال مسيرة المفاوضات. فإيران لم تقبل الجلوس إلى طاولة التفاوض إلا بعد أن ذاقت ضربات عسكرية واقتصادية موجعة. وسيتصلّب موقفها التفاوضي فور اقتناعها بأن الدبلوماسية قد أبطلت خيار استئناف القوة. فالتفوّق في التصعيد، لا حسن النية، هو الركيزة التي يقوم عليها النفوذ الأمريكي.

في المرحلة القادمة من هذا الصراع، الوقت في صالح الطرف الذي يُحافظ على الضغط. وبالتركيز على الرافعة والتحقق والاحتواء الطويل الأمد بدلاً من المطالبة القصوى بانتصار غير مشروط، يستطيع المؤيدون لهذه الإدارة تقوية يد الرئيس في الوقت الذي يصونون فيه المكاسب الاستراتيجية التي جنتها الحرب.